سأخبر اللّه بكل شيء

«سـأخبر اللّه بـكل شـيء .. سـأخبر اللّه بـكل شـيء».. قبـل أن يُطلـق الطفـل السـوري شـهقة المـوت بلحظـات خرجـت مـن فيـه تلـك الكلمـات المؤلمـة، طفـل لـن يذكـر التاريـخ أسـمه، ولكنـه سُـيخلد عبارتـه تلـك، طفـل قتـل ببراءتـه المقتولـة إنسـانيتنا المفقـودة، قالهـا والدمـاء تسـيل أنهـاراً علـي جبينـه ووجنتيـه، دمـاء مـن كثرتهـا لا يمكـن أن تميـز لـون دمـع العـين القانـي.

علـي فـراش المـوت، وبينمـا كان الأطبـاء يسـعفونه، لا يدركـون مـن الأمـر شـيئاً، فاجئهـم ذاك الطفـل بأربعـة كلمـات، عاشـوا طويـلاً يسـمعونها مـن أطفـال عوقبـوا علـي فعـل خاطـئ، يختبـئ الفتـي أسـفل فراشـه أو خلـف الكومودينـو الصغيـر، ثـم يطلـق صياحـه الشـقي، ممزوجـاً ببـراءة جزلـة «عليـك اللّه لا تقتـرب منـي.. سـأخبره بـكل شـيء.. سـأخبر اللّه بـكل شـيء»، ضحـكات متقطعـة جعلت الأب والأم يـدركان أن صغيرهـم يلهـو، ومـا هـي إلا لحظـات حتـي يأتـي الجـد حامـلا معـه الأمـان، ليرتمـي ذاك الصغيـر في حضـن يمتلـئ بـكل مـا يريـد أنـه يخبـره للإلـه.

اليوم ما عاد هناك أب، ما عاد هناك أم، سبقهم الجد برصاص الغدر، لحق بهم الأبناء بسيف الفكر، وها هو الحفيد باكياً يستنجد بالرب، سيقف بين يديه، سيخبره بكل شيء، سيخبره بكل أدب، يا أللّه خلقتني إنساناً، أنشأتني بريئاً، جعلتني بين إناس انتُزعت الإنسانية من قلوبهم، حرموني روحاً نفختها في جسدي، واليوم الروح عادت إليك، تشكوا ضعف قوتها، وقله حيلتها، وهوانها علي الناس، روحاً لا تعلم بأي ذنب قُتلت، لن يكن هناك ألم، لن تسيل علي وجنتيه الدماء أنهارا، لن تدمع عينه ماءا.

أعلي فراش الموت ألقت روح الصغير نظرة الوداع علي بقايا جسد، حلمت كثيرا آلا تتركه، تعلم إنها إلي الجنة ذاهبة، لكنها كأي روح تمنت أن لا تفارقه، ليس بتلك الصورة علي الأقل، لم تنس أن تلق نظرة علي الباكين حولها، رجال ونساء لم يكفوا عن البكاء لحظة، لم يرتكبوا إثم ولم يقصرا في إنقاذ روحه الشاردة، وما خلف غرفة الموت، وفي طريقه للسماء صاعداً، عرج علي منزل مولده، لم يجد حديقته التي روي شجيراتها بيده، لم يجد فراشه الذي أسفله طالما اختبأ، سمع صوته يردد ضاحكاً «عليك اللّه يا أبي لا تقترب مني.. سأخبره بكل شيء.. سأخبر اللّه بكل شيء»، فتذكر أخر كلماته قبل شهقة الموت قائلاً: «أستودع بلادي

في حفظ من عاش من أبناءها.. أما أنا فموعدي مع الله في السماء أخبره بكل من جني في حقها».

●●●

(نهار خارجي – مصر المحروسة – صباح ٩ إبريل ٢٠١٧)..

استيقظت هذا اليوم مبكراً، انطلقت من قريتي المجاورة لقاهرة المعز، يلفني حشد من الصغار الفرحين، صنعوا بملابسهم كرنفالاً، زينت هاماتهم تيجان سعف النخيل، فاليوم عيدنا، مسيحيين ومسلمين، يوم أن دخل عيسي بن مريم أورشليم، راكبًا حماره باستقبال أهلها كالفاتحين، رافعين بأيديهم غصون السعف الأخضر، مرددين يا رب خلص «هوشعنا» أمين.

في تلك اللحظة، وفي مدينة أخري، آبي الشيطان أن يفرح المؤمنين، مع الإمام عقد مجلساً، للشر ناصح أمين، وهناك اتخذ قراراً علة أن يكون من الفاتحين، لم يرض بسوار سعفهم الأخضر، فأبدله بحزام الفتح المُبين، علي باب كنيسهم وقف، لم يبال بصلاة العابدين، أطلق جحيم حقده مدمراً، وأزاح بأشلائه حُلم البلد الأمين، لحظة عشناها عيدٌ بعد عيد، ولم نكن بعد قد نسينا يوم القديسين.

مـن قـال أن الشـر لـم يهـزم فينـا الأمـل، مـن يزعـم أن دماؤنـا المستباحة لـم تعـد تزكـم الأنـوف، تلـك الأشـلاء هنـاك قتلـت داخلنا كل معانـي الفـرح، لـم تعـد لقلوبنـا القـدرة علـي البـكاء، لـم يعـد لصغارنـا القـدرة علـي المـرح، حتـي نسـاؤنا مـا عـدن يشـعرن بالأمـان، عجـز رجالهـم عـن درء الأذى عنهـن، فتناثـرت أجزائهـم علـي الجـدران، لـم يعـد هنـاك فـرق بـين هنـا وهنـاك، أصـاب القاتـل بفعلتـه هدفـاً، أبـدل كرنفـال المُعيديـن مأتمـاً، لا تسـمع فيهـا تهنئـة، فقـط يـردد بعضهـم هامسـاً، يـا رب خلـص «هوشـعنا» أمـين.

●●●

(نهار داخلي – إحـدي عربـات المتـرو – ظهـر ٩ إبريـل ٢٠١٧)..
مـن ينظـر إلـي وجـوه النـاس في شـوارع المحروسـة ظهـر اليـوم، لـن يصـدق أنهـا نفـس الوشـوش التـي قابلتهـا صبـاح نفـس اليـوم، حـل الحـزن محـل الفـرح، حلـت الكآبـة محـل التفـاؤل، انطفـئ نـور العيـون الضاحكـة، اصفـرت الوجـوه، اختلجـت النفـوس، مـادت الأرض بالنـاس، فسـقط بعضهـم جالسـاً كالموتـى لا يتحركـون، خنقتهـم العبـرات، عقـدت الدهشـة ألسـنتهم، فسـالت دموعهـم غزيـرة تعبـر عمـا في نفوسـهم مـن لوعـة وحسـرة.

أعتـرف أنـه لـم تكـن لـدي رغبـة للحـزن ذلـك اليـوم، صحـوت مبكـراً بحثـاً عـن حلمـي، لكننـي أدركـت أن مـا حلمـت بـه لا يسـعدني مـع تلـك الوجـوه المكفهـرة، وكأنهـا عـدوي انتقلـت إلـي كيانـي، أصابتنـي

غصة جف لها حلقي، رغم رفضي استخدام المترو في تنقلاتي، فدائما ما يُشعر رئتي بالاختناق، عزمت اليوم الفرار إليه، ظننت أنني سأبتعد لو لبعض حين عن تلك الوشوش الحزينة، ولكنه كعادتي ظن من النوع الأثيم.

يا لهول ذلك المشهد الرهيب، مشهد يفتت أشد الصخور صلابة، تنفطر لرؤيته الأكباد، تدمع من أجله العيون، لم يكن تحت الأرض يختلف كثيرا عما شاهدته علي سطحه، داخل عربة المترو لم يكن هناك الكثير، فاليوم أحد السعف، الجميع إما في الكنائس، وإما في الحدائق والحقول القريبة، وكأن علي رؤوس من بقي منهم الطير، خيم علي العربة صمتاً مهيباً، نحتت الصدمة علي وجوههم تقاسيم الذهول من هول الفاجعة.

أغلق القطار أبوابه، تحرك مغادرا تلك المحطة الكئيبة، بحثت بعيني عن مكان شاغر، كان هناك الكثير، نظرة صغيرة جعلتني أدرك أن الوقوف بعيداً أهون ألف مرة من الجلوس بجوار كائن حزين، بطرف عيني لمحتها، فتاة صغيرة، تجاوزت السادسة بقليل، خمرية البشرة، عسلية العين، يزين شعر رأسها الأسود تاج المُلك الأخضر، صُنع بمهارة من سعف النخيل، كعروس صغير ترتدي فستاناً وردي قصير، وحذاء من القماش من نفس اللون الأثير، بابتسامة هادئة أشارت إلي، أملة أن أجلس بجوارها.

أسـرة مصريـة بسـيطة، جـاءت مـن إحـدي قـري محافظـة القليوبيـة، تمنـي النفـس بنزهـة تختـم بـه مشـقة الصـوم الكبيـر، أب وأم وثلاثـة بنـات، أصغرهـم تلـك التـي دعتنـي للجلـوس بجوارهـا، لـم أعلـم أسـمها، فرغـم ملاطفتـي لهـا لـم تنبـس ببنـت شـفه، فقـط ابتسـامات خاطفـة، ثـم يعـود الشـرود إلـي وجههـا الصغيـر، لقـد أفسـد القاتـل رحلتهـم، فـكان القـرار بالعـودة إلـي الديـار، هـكذا انتهـي العيـد رغـم معارضـة الصغـار، لـم يكـن هنـاك صـوت يعلـو فـوق صـوت الصمـت داخـل عربـة ذلـك القطـار.

«لـولا صـوت القطـار لظننـت أننـا انتقلنـا إلـي العـدم».. هكـذا قلـت لنفسـي، فالجميـع يخشـى الحديـث، الجميـع لا يفعـل أي شـيء، فقـط النظـر إلـي الأرض، بعضهـم وضـع وجنتيـه بيـن راحتيـه، والبعـض الأخـر وضـع همـه في مطالعـة صحيفـة، تحـرك القطـار محطـة وراء محطـة، يصعـد مـن يصعـد وينـزل مـن ينـزل، في أخـر المقعـد انشـغلت أم الفتـاة بمتابعـة الأخبـار علـي هاتفهـا الجـوال، بـين الفينـة والأخـرى تدعـو زوجهـا ليـري مـا تشـاهده، فيربـت علـي كتفيهـا مواسـياً، الـرب يرحمهـم أجمعـين، يـا رب خلـص «هوشـعنا» أمـين.

راح الأب يـردد مواسـاته، يـا رب خلـص «هوشـعنا» أمـين، تـاركاً زوجتـه ترسـل الدمـع في صمـت علـى وجنتيهـا، تظهـر خلفهـا نظـرة حزينـة منكسـرة، بكـت كثيـرا حتـي تورمـت عيناهـا حزنـا، حتـى

أوشكت على الهلاك لشدة ضعفها، في حين أحاط زوجها ابنتيه بذراعيه، أراد أن يشعرا بالطمأنينة والأمان، حاولت أن أهون عليه قائلاً، لا تحزن سيدي، الإرهاب لا دين له، القاتل لم يفرق بين مسلم ومسيحي، فاجأتني الصغيرة بصوتها الذي أسمعه للمرة الأولي، «معلش يا عمو.. محدش بيموت غيرنا».

هل تذكرون عبارة الطفل السوري ذي الأربعة كلمات، اليوم أضحت ثلاثة كلمات، «محدش بيموت غيرنا»، نفس البراءة، نفس التلقائية، اجتمعتا في هذين الطفلين، الفرق بينهما أكثر من ستمائة كيلو متر بقليل، ولكنهما لخصا بعفويتهما واقعنا الأليم، ألجمتني عبارة الطفلة، لم أعد قادرا علي الحديث، تسمرت في مكاني لا أقوى على الحركة، وحينما حاولت النهوض لم استطع، أصبحت ساقاي غير قادرتين على حملي، استبد بي اليأس والكآبة والحزن من جديد، عدت إلى المنزل منكسراً حزيناً، أجر خطى الخيبة، وعيون أترابي ترمقني في شفقة، وقد تملكني حزن شديد، أمست حياتي خواء لا بهجة فيها.

●●●

عصافير بلا أجنحة لجنة أشبه بالجحيم